أدب الاخلاف ومنهجية الفهم والحكم

في أحد اللقاءات مع زملاء الدراسة، دار بيني وبين أحدهم حديث في علوم الغاية وعلوم الآلة ومنها إلى العربية والبلاغة، فحدثته عن أثرها في إثراء الأدب والشعر، وعن صلتها بإدراك وجوه الإعجاز البياني في القرآن الكريم، وكان ممن لم يدرسوا البلاغة بعد، فسألني متعجبًا عن جدوى هذا التعمق في العربية، فذكرت له أن من أعظم ما يعنيني به إعانتي على تدبر كتاب الله، إذ كلما ازداد المرء معرفةً بلسان العرب ازداد كَشْفًا عن معاني القرآن وأسرار بيانه.

ثم انتقل الحديث إلى الحقيقة والمجاز، فسألني سؤالًا بدا لي غريبًا في صياغته بالنظر إلى أنه لم يدرس البلاغة بعد، قائلًا: هل ترى القرآن حقيقة أم مجاز؟

فأجبته: القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين وفيه من الآيات حقيقة ومنها مجاز، ثم انتهى به الأمر إلى الحكم على القول بالمجاز في القرآن بأنه من مسالك بعض العلماء والفرق الضالة. ولما سألته عن مستنده في ذلك، ذكر كتابًا لابن تيمية رحمه الله في الحقيقة والمجاز، ثم تبين لي أنه لم يقرأه بعد.

ولا أريد أن أسهب في تفاصيل الحوار أكثر من ذلك فقد كان الموقف عابرًا، لكنه ترك في نفسي سؤالًا لم يكن متعلقًا بالحقيقة والمجاز وحدهما ولكن: كيف يتكون في ذهن الإنسان حكم حاسم على مسألة لم يقرأ فيها، ولم يتصور مصطلحاتها، ولم يعرف محل النزاع فيها؟ وكيف تنتقل النتيجة من لسانٍ إلى آخر ويتبنى المرء موقفًا لمجرد أن شيخًا أو كاتبًا أقر به أو أنكره، حتى يستقر في النفس أنها حقيقة مكتملة، قبل أن تبدأ رحلة النظر فيها؟

وتتكرر هذه الظاهرة في كثير من حوارات الناس، حيث يكشف الواقع أن الأزمة ليست اختلافًا في الأدلة بقدر ما هي انحراف عن أدب الخلاف وغياب لمنهجية الحكم، مما يجعل الوقوف عند هاتين الركيزتين أمرًا لا غنى عنه:

أولًا: أدب الخلاف

لم يجعل القرآن الكريم الخلاف بابًا للخصومة ولا وسيلة لإذلال المخالف أو الانتقاص منه، وإنما وضع له من الآداب ما يحفظ للحقيقة مكانتها ويحفظ للنفوس كرامتها، ومن تدبر آيات القرآن وجد أنه لا يقتصر على إقرار الحق بل يعلم أهله كيف يعرضونه وكيف يخاطبون مخالفيهم وكيف يكون مقصدهم هداية الناس لا مجرد الانتصار عليهم.

وأول ما ينبغي أن يقوم عليه الخلاف أن يُنصَف المخالف وأن يُنزَّل في الحوار منزلةً تفتح له باب النظر ولا تغلق عليه سبيل الرجوع إلى الحق، وليس الإنصاف هنا مجرد ترك الظلم في الحكم وإنما أن تبلغ في خطاب مخالفك من العدل غايته ولو كنت على يقين من صواب موقفك.

ومن أبلغ ما يصور هذا المعنى قول الله تعالى في سورة سبأ: (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

فالخطاب هنا للنبي ﷺ وهو على يقين من أنه على الهدى والمؤمنون معه على يقين من ذلك، والمشركون على خلافه ومع ذلك لا يأتي الخطاب في صورة إلقاء الحقيقة في وجه المخالف إلقاءً يحمله على المكابرة وإنما يأتي في أبلغ صور الإنصاف: (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) وكأن الخطاب يقول: أحد الفريقين على هدى والآخر في ضلال، فتعالوا ننظر أيُّنا صاحب الحق وليس في ذلك شك في الحقيقة وإنما هو من أبلغ طرائق الاحتجاج وأعدلها إذ يُفسح للمخالف مجال النظر ويُستدرج إلى سماع الحجة من غير أن يُستفز شعوره أو يُغلق قلبه قبل أن يبدأ الحوار.

ثم انظر إلى دقة التعبير القرآني: لم يقل "في هدى" وإنما قال: (لَعَلَىٰ هُدًى)، فجعل صاحب الهدى مستعليًا متمكنًا منه ثابتًا عليه، بينما قال في الجانب الآخر: (أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)، فجعل الضلال ظرفًا يحيط بصاحبه كأنه منغمس فيه محاط به من كل جانب، وفي المقابلة بين الاستعلاء والانغماس في الضلال من لطيف البيان ما يزيد المعنى قوة، ويكشف أن الإنصاف في الخطاب لا يعني تمييع الحقيقة ولا إخفاء المفاضلة بين الهدى والضلال.

وهنا تظهر منزلة الإنصاف في الخلاف: أن تكون على يقين من الحق، ثم تبلغ مع ذلك في إنصاف مخالفك غايته، فلا تستمد قوة حجتك من إهانته، ولا ترى أن اعترافك بإنصافه ينتقص من حقك، ولا تجعل وضوح الحق ذريعة إلى غلظة الخطاب.

ثم لا يقف أدب الخلاف عند إنصاف المخالف في أصل الموقف وإنما يمتد إلى الطريقة التي يُدار بها الحوار، ولهذا يقول الله تعالى في سورة العنكبوت: (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ)

وتأمل هذا التعبير القرآني: (إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) فالمعنى ليس أن يقتصر المسلم على مجرد طريقة حسنة في جداله، وإنما أن يختار من وجوه القول ما هو أحسنها، إذ قد تكون أمام المتحاور طرق حسنة في أصلها ثم يكون بعضها أرفق بالنفس وأقرب إلى قبول الحق وأدعى إلى الوصول إلى المقصود، فجاء التعبير القرآني ليحمل المتجادل على أن ينتقي أحسن ما يمكن أن يُقال وأحسن ما يمكن أن يُعرض به الدليل.

وهذا من فضائل أدب الخلاف، إذ ليس المقصود أن ينتصر الإنسان في جداله وإنما أن يبلغ بالحق إلى قلب المخالف وعقله، وقد يملك المرء حجة صحيحة لكنه يعرضها في صورة تنفر منها النفس فيخسر طريق الوصول إليها، وقد يكون من تمام حسن الحجة أن تُحسن اختيار العبارة وتعرف موضع اللين وموضع الشدة وتدرك أن المقصود من الحوار أرفع من مجرد إسكات الخصم.

ثم جاء الاستثناء: (إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ) ليبين أن هذا الأدب لا يعني أن تكون الحكمة في كل مقام صورة واحدة ولا أن حسن الخلق يقتضي إغفال الظلم أو السكوت عن العدوان، فلكل مقام ما يناسبه ولكل حال خطاب وإنما الأصل أن يكون الحوار قائمًا على أحسن ما يليق بالمقام فإذا تجاوز المخالف حدود الجدال إلى الظلم والعدوان، جاوز الخطابُ حدَّ اللين إلى ما يقتضيه العدل والردع.

وهكذا يجتمع في الآية أمران: حسن المقصد وحسن الطريقة، فلا يكفي أن يكون الإنسان صاحب حق وإنما عليه أن يبحث عن أحسن سبيل يعرض به حقه وأن يجعل أدبه في الخلاف جزءًا من حجته لا أمرًا زائدًا عليها.

ومن تمام هذا الأدب أن يبدأ المتحاوران بما يجمعهما قبل أن ينتقلا إلى ما يفرقهما فإن النفوس إذا وجدت أرضًا مشتركة كانت أقرب إلى قبول الحق وأبعد عن العناد. وليس المقصود بذلك التنازل عن الحق وإنما تهيئة الطريق للوصول إليه، ولهذا كان القرآن يجمع بين حسن الخطاب والثبات على العقيدة، فلا يحمل المؤمنين على الفظاظة باسم الصراحة ولا يدعوهم إلى المداهنة باسم اللين وإنما يأمرهم بالحكمة ويجمع لهم بين حسن العرض ووضوح الموقف وقوة الحجة.

ثانيًا: تقديم الحكم على الفهم

إذا كان الجانب الأخلاقي يرسم للمسلم كيف يختلف فإن الجانب المعرفي يعلمه كيف يبني أحكامه، فكثير من الناس لا يقع خطؤهم في سوء القصد وإنما في فساد الطريق الذي أوصلهم إلى النتيجة.

فالخلل لا يبدأ حين يصدر الإنسان حكمه وإنما حين يتلقى نتيجة مجردة من مقدماتها أو يسمع رأيًا دون أن يقرأ دليله، أو يكتفي بما ينقله الناس عن الكتب دون أن يرجع إليها، وحينئذ يظن أنه قد أحاط بالمسألة فيبني على هذا الظن حكمًا ثم يتحول الحكم مع الأيام إلى موقف يدافع عنه وربما خاصم الناس من أجله وهو لم يقرأ مصدرًا ولم يحرر محل النزاع ولم يعرف حقيقة ما اختلف فيه العلماء.

ولهذا قرر العلماء قاعدة جليلة متفقًا عليها وهي أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره: فمن لم يتصور المسألة تصورًا صحيحًا لم يكن حكمه عليها إلا ضربًا من التخمين وإن وافق الحق اتفاقًا. وهذه القاعدة على إيجازها تختصر جوهر الأزمة، فالحكم الذي يُبنى قبل التصور لا فرق فيه بين أن يكون صادرًا عن جاهل أو عن عالم لم يتحقق من مسألته بعينها، إذ العبرة بالطريق لا بمكانة القائل.

وقد سبق القرآن الكريم إلى تقرير هذا الأصل، إذ يقول الله تعالى في سورة الإسراء: (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) فالنهي هنا ليس عن اتباع الباطل وحده، بل عن اتباع ما "ليس لك به علم"، أي: تبنّي الموقف قبل تحصيل أداة العلم به، ولو صادف هذا الموقف الحق في ذاته. وتأمل كيف ساقت الآية عقب هذا النهي ذكر السمع والبصر والفؤاد معًا، وكأنها تقرر أن أدوات الإدراك الثلاثة جميعها مسؤولة عما بُني عليها من قول، فلا يُعفى المرء من التبعة بدعوى أنه سمع فقط أو نقل فحسب.

ويؤكد هذا المعنى ما رواه مسلم في صحيحه من قوله ﷺ: "كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع" فجعل مجرد النقل عن كل مسموع من غير تثبت ولا تصور كذبًا موصوفًا وإن لم يتعمد صاحبه مخالفة الواقع لأن حقيقة الكذب هنا ليست في تعمد المخالفة بل في تجاوز حدود ما يملك المرء علمًا به.

ولعل من أخطر ما ابتلينا به في زمن كثرت فيه وسائل النشر أن الناس يتداولون النتائج أكثر مما يتداولون المقدمات فيشيع القول وتنتشر خلاصته ويتلقفها الناس ثم تتحول مع كثرة التداول إلى مسلمات، وقليلٌ منهم مَن يرجع إلى المصدر الذي نُسب إليه القول ليقرأ كلام صاحبه في سياقه. وحسبك مثالًا على ذلك ما جرى في حواري مع الزميل، إذ تحوّل مجردُ عنوانِ الكتاب مع ما سمعه عن إنكار ابن تيمية رحمه الله للمجاز إلى حكمٍ قاطع في ذهنه، رغم أنه لم يقرأ المصدر الذي استند إليه، فصار ناقلًا لنتيجة لا حاملًا لدليل.

فالتريث في إصدار الحكم حتى تتبين المسألة سِمة المنهج القويم، بينما الخلل في أن يتبنى الإنسان موقفًا لا يملك أدواته؛ فالواجب أن تسبق القراءةُ الاقتناعَ، ويسبق التصورُ الحكمَ، ويسبق البحثُ الخصومةَ، فكم من خلاف انقضى قبل أن يبدأ لو أن كل واحد من الطرفين قرأ قبل أن يتكلم وفهم قبل أن يحكم.

ومن يتأمل الحوار الذي دار بيني وبين الزميل يجده لم يكن عن الحقيقة والمجاز بقدر ما كان عن داء أعمق لم أتبينه إلا بعد انتهائه. فقد كشف لي أن كثيرًا من خلافاتنا لا تنشأ من غموض الحق وإنما من خلل في أخلاق الحوار أو في منهج الوصول إلى الأحكام، وربما اجتمع الخللان معًا فيصبح الوصول إلى الحقيقة أبعد منالًا.

ولعل أول ما يحتاج إليه المرء اليوم ليس كثرة الكتب وإنما حسن الانتفاع بها فلا يجعلها زينةً للمكتبات ولا يكتفي بما يسمعه عنها من الناس بل يقرأها بعين الباحث ويتأنى في أحكامه ويؤثر الإنصاف على الانتصار والحق على الهوى.